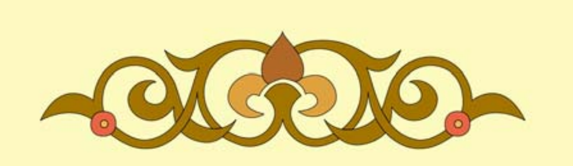


علامات مرض القلب وصحته



أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ



علامات مرض القلب وصحته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

أعظم نعمة ينعم الله بها على العبد أن يصلح له قلبه، ويحييه بنور الإيمان، ويثبّته عليه، فصلاح القلب صلاح الجسد كله، وفساده فساد الجوارح كلها، قال رسول الله ﷺ: « أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

ولا صلاح للقلب إلا بمعرفة الله وتوحيده وطاعته وطاعة رسوله؛ لأن الله خلقه لذلك، فإذا تحقق فيه ما خلقه الله له استقامت أموره كلها، وإذا لم يتحقق فيه ذلك أتاه الفساد من كل جانب، كالحوت خلقه الله ليعيش في البحر فإذا فقد البحر فقد الحياة، فذكر الله مع الإيمان به حياة القلوب، وفي الغفلة عن الله موت القلوب، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢].

ونحن اليوم في زمن قال الله عنه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

فإذا لم يتنبه المسلم لقلبه أهلكته الغفلة، وأقساه طول الأمل، فأصل فساد القلب ترك المحاسبة للنفس والاغترار بطول الأمل، ومن أراد صلاح قلبه فليحاسب نفسه، وليراقب قوله وعمله،

(١) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه:كتاب الإيمان (٥٢)، ورواه مسلم: كتاب المساقاة (١٥٩٩).

وليقصر أمله بدوام ذكر الموت، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد: ١٦].

قال البغوي: [قال عبد الله بن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلّا أربع سنين[(١)]، وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن[(٢)]][(٣)].

فالله يريد منا صلاح قلوبنا، وينهانا أن نكون كالذين ركنوا إلى الدنيا وطال عليهم الأمل فقست قلوبهم ولهت عما خُلقت له، ولا ينفع عند الله يوم القيامة كثرة المال والولد وإنما ينفع القلب السليم، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩].

يقول ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان[(٤)] في حديثه عن علامات مرض القلب وصحته:

كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ

---

(١) رواه مسلم: كتاب التفسير (٣٠٢٧)، باب في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

(٢) ساقه ابن كثير في التفسير(٤/ ٣١١) من رواية ابن المبارك، وابن أبي حاتم، وفيه صالح المرّي، وهو ضعيف. وعزاه السيوطي في الدر المنثور(٨/ ٥٨) لابن أبي حاتم، وابن مَرْدَوَيْه.

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، تأليف: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ج٨/ ص٣٧.

(٤) نقلًا عن الطبعة التي بتحقيق محمد سيد كيلاني، الناشر: مكتبة دار التراث – القاهرة، طبعة سنة: ١٣٨١هـ – ١٩٦١م، ج١/ ص٨٣.

الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خاليًا عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولا بد، فيصير معذبًا بنفس ما كان منعمًا به من جهتين؛ من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به، وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئًا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب، وتعوضت بمحبة غيره.

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطّن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره: كمن دخل في طريق مخوّفٍ مفضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاجٌ إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولا سيّما إن عدِم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس فلي بهم أسوة. وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم، فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فتفرُدُ العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب.

ولقد سُئل إسحاق بن رَاهَوَيْهِ عن مسألة فأجاب. فقيل له: إن أخاك أحمد ابن حنبل يقول فيها بمثل ذلك. فقال: ما ظننت أن أحدًا يوافقني عليها، ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافقة، فإن الحق إذا لاح وتبين لم يحتج إلى شاهد يشهد به، والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس. فإذا رأى الرائي الشمس لم يحتج في علمه بها واعتقاده أنها طالعة إلى من يشهد بذلك ويوافقه عليه.

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب الحوادث والبدع: [حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف له كثيرًا] لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. قال عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ: [صحبت معاذًا باليمن. فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: سَيَلِي عليكم وُلاةٌ يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة. قال قلت: يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثونا؟ قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها. ثم تقول: صل الصلاة وحدك، وهى الفريضة، وصل مع الجماعة وهى نافلة؟ قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا. قال: إن جمهور الجماعة: الذين فارقوا الجماعة. الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك]. وفى طريق أخرى: [فضرب على فخذي وقال: ويحك، إن جمهور الناس فارقوا الجماعة. وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عَزَّوَجَلَّ]. قال نعيم بن حمّاد: [يعنى إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ] ذكره البيهقي وغيره.

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري قال: [السنة - والذي لا إله إلّا هو - بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما

بقى: الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا].

وكان محمد بن أسلم الطوسي، الإمام المتفق على إمامته مع رتبته، أتبعُ الناس للسنة في زمانه، حتى قال: [ما بلغني سنة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلّا عملت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا، فما مُكّنت من ذلك]، فسئل بعض أهل العلم في زمانه عن السواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: « إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فَعَلَيكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ»[1]. فقال: [محمد بن أسلم الطوسي هو السواد الأعظم]. وصدق والله، فإن العصر إذا كان فيه عارفٌ بالسنّة داع إليها فهو الحجّة، وهو الإجماع، وهو السواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولّاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا.

والمقصود: أن من علامات أمراض القلوب عُدُولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة، وعُدُولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار، فهنا أربعة أمور: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

(١) حديث ضعيف، ولم يثبت هذا بهذا اللفظ، فقد روى ابن ماجه في سننه (٣٩٥٠) وعبد بن حميد في مسنده (١٢٢٠) من حديث أنس بن مالك رضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ فَإِذَا رَأَيْتُمْ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ». قال الهيثمي في المجمع: [في إسناده أبو خلف الأعمى واسمه حازم بن عطاء وهو ضعيف]، قال عنه الحافظ بن حجر: [متروك الحديث رماه ابن معين بالكذب].

قال الشاطبي في الاعتصام (ص٧٧٧): [قال إسحاق: لو سألت الجهّال عن السواد الأعظم لقالوا: جماعة الناس. ولا يعلمون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة، ثم قال إسحاق: لم أسمع عالمًا منذ خمسين سنة كان أشد تمسكًا بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم. فانظر في حكايته تتبين غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس، وإن لم يكن فيهم عالم، وهو وهم العوام، لا فهم العلماء. فليثبُت الموفق في هذه المزلّة قدمه لئلا يضل عن سواء السبيل، ولا توفيق إلا بالله].

وقال السندي في شرحه نقلًا السيوطي في تفسير السواد الأعظم: [أي جماعة الناس ومعظمهم الذين يجتمعون على سلوك المنهج المستقيم. والحديث يدل على أنه ينبغي العمل بقول الجمهور] حاشية السندي على سنن ابن ماجه ج٢/ص٤٦٤.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته أيضًا: أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر: « كُنْ فِي الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ»[1].

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا المُخَيَّمُ
وَلكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ، فَهَلْ تَرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ؟

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [إن الدنيا قد ترحّلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحّلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل].

وكلما صح القلب من مرضه ترحّل إلى الآخرة وقرُب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلّا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف. فذِكرُه قُوتُه وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في صحيحه (٦٤١٦) ما عدا قوله: وعد نفسك من أهل القبور، ورواه ابن ماجة في سننه بلفظه (٤١١٤).

قوله: « كَأَنَّكَ غَرِيبٌ» قال العيني: [هذه كلمة جامعة لأنواع النصائح إذ الغريب لقلة معرفته بالناس قليل الحسد والعداوة والحقد والنفاق والنزاع، وسائر الرذائل منشؤها الاختلاط بالخلائق، ولقلة إقامته قليل الدار والبستان والمزرعة والأهل والعيال وسائر العلائق التي هي منشأ الاشتغال عن الخالق] عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج٢٣/ص٣٣.

به وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدّت تلك الفاقة، فإن في القلب فاقة لا يسدّها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلُمّه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذٍ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلق الخلق، ولأجله خُلقت الجنة والنار، وله أُرسلت الرسل ونُزّلت الكتب، ولو لم يكن جزاءٌ إلّا نفس وجوده لكفى به جزاءً وكفى بفوته حسرةً وعقوبةً.

قال بعض العارفين: [مساكينٌ أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته].

وقال آخر: [إنه ليمرُّ بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب].

وقال آخر: [والله ما طابت الدنيا إلّا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلّا برؤيته ومشاهدته].

وقال أبو الحسين الورّاق: [حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني الحياة مع الله تعالى لا غير].

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟.

وقال آخر: [من قَرّت عينه بالله تعالى قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات].

وقال يحيى بن معاذ: [من سُرّ بخدمة الله سُرّت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرّت عينه بالله قرّت عيون كل أحدٍ بالنظر إليه].

ومن علامات صحة القلب: أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره، إلّا بمن يدلّه عليه، ويذكّره به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته وِرْدُه وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشرب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همّه وغمّه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقرة عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشحّ بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شُحًّا بماله.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منّة الله عليه فيه وتقصيره في حق الله.

فهذه ست مشاهد لا يشهدها إلّا القلب الحي السليم.

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همّه كله في الله، وحبّه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابّه: الخلوة به آثر عنده من الخُلطة إلّا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] .

فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفة له وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها توددًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله. فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقًا ينطق: [لبَّيْك وسعديك، إني سامع مطيعٌ ممتثل، ولك عليّ المنَّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك].

وإذا أصابه قدر وجد من قلبه ناطقًا يقول: [أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوني، لا ملجأ لي منك إلّا إليك ولا مستعان لي إلّا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك].

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أُهدِيَتْ إلي، ودواء نافع من طبيب مشفق. وإن صرف عنه ما يحب قال: شرًا صرف عني.

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خِرْتَ لِي فِي انْصِرَافِهِ		وَمَا زِلْتَ بِي مِنِّي أَبَرَّ وَأَرْحَمَا

فكل ما مسه به من السراء والضراء اهتدى بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

مَا مَسَّنِي قَدَرٌ بِكُرْهٍ أَوْ رِضًى		إِلَّا اهْتَدَيْتُ بِهِ إِلَيْكَ طَرِيقًا
أَمْضِ القَضَاءَ عَلَى الرِّضَى مِنِّي بِهِ		إِنِّي وجَدْتُكَ فِي البَلَاءِ رَفِيقًا

ولله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر، ولله طيب أسرارها ولا سيما يوم تبلى السرائر.

سَيَبْدُو لَهَا طِيبٌ وَنُورٌ وَبَهْجَةٌ		وَحُسْنُ ثَنَاءٍ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

بالله، لقد رُفع لها علم عظيم فشمّرت إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه، واختارت على ما سواه وآثرت ما لديه.(١)

❁❁❁

وقد نظم الشيخ سليمان بن سحمان قصيدة(٢) ذكر فيها المشاهد الستة التي ذكرها ابن القيم في علامة صحة القلب، قال فيها:

---

(١) انتهى كلام ابن القيم من كتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، تأليف: علماء نجد الأعلام، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ج١/ص٥٨٨.

بِحَمْدِ اللَّهِ نَبْدَأُ فِي الْمَقَالِ ... وَذِكْرُ اللَّهِ فِي كُلِّ الْفِعَالِ
فَذِكْرُ اللَّهِ يَجْلُو كُلَّ هَمٍّ ... عَنِ الْقَلْبِ السَّلِيمِ عَلَى التَّوَالِ
فَلِلْقَلْبِ السَّلِيمِ إِذَا تَزَكَّى ... عَلَامَاتٌ هُنَالِكَ لِلْكَمَالِ
عَلَامَاتٌ لِصِحَّةِ كُلِّ قَلْبٍ ... سَلِيمٍ عَنْ مُدَاخَلَةِ الضَّلَالِ
عَلَامَاتٌ ذُكِرْنَ بِكُلِّ نَثْرٍ ... عَنِ الْأَعْلَامِ وَاضِحَةٌ لِتَالِ
وَلَكِنِّي نَظَمْتُ لَهَا نِظَامًا ... بِهِ أَرْجُو التَّنَافُسَ فِي الْفِضَالِ
مَعَ الْإِقْرَارِ بِالتَّقْصِيرِ فِيهَا ... وَذِكْرٌ لِلْعَقِيدَةِ فِي الْمَقَالِ
عَلَامَةُ صِحَّةٍ لِلْقَلْبِ ذِكْرُهُ ... لِذِي الْعَرْشِ الْمُقَدَّسِ ذِي الْجَلَالِ
وَخِدْمَةُ رَبِّنَا فِي كُلِّ حَالِ ... بِلَا عَجْزٍ هُنَالِكَ أَوْ مَلَالِ
وَلَا يَأْنَسْ بِغَيْرِ اللَّهِ طُرًّا ... سِوَى مَنْ قَدْ يَدُلُ إِلَى الْمَعَالِي
وَيَذْكُرُ رَبَّهُ سِرًّا وَجَهْرًا ... وَيُدْمِنُ ذِكْرَهُ فِي كُلِّ حَالِ
وَمِنْهَا وَهْوَ ثَانِيهَا إِذَا مَا ... يَفُوتُ الْوِرْدُ يَوْمًا لِاشْتِغَالِ
فَيَأْلَمُ لِلْفَوَاتِ أَشَدُّ مِمَّا ... يَفُوتُ عَلَى الْحَرِيصِ مِنَ الْفِضَالِ
وَمِنْهَا شُحُّهُ بِالْوَقْتِ يَمْضِي ... ضَيَاعًا كَالشَّحِيحِ بِبَذْلِ مَالِ
وَأَيْضًا مِنْ عَلَامَتِهِ اهْتِمَامٌ ... بِهَمٍّ وَاحِدٍ غَيْرِ انْتِحَالِ
فَيَصْرِفُ هَمَّهُ لِلَّهِ صِرْفًا ... وَيَتْرُكُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَقَالِ
وَأَيْضًا مِنْ عَلَامَتِهِ إِذَا مَا ... دَنَا وَقْتُ الصَّلَاةِ لِذِي الْجَلَالِ
وَأَحْرَمَ دَاخِلًا فِيهَا بِقَلْبٍ ... مُنِيبٍ خَاضِعٍ فِي كُلِّ حَالِ
تَنَاءَى هَمُّهُ وَالْغَمُّ عَنْهُ ... بِدُنْيَا تَضْمَحِلُّ إِلَى زَوَالِ
وَوَافَى رَاحَةً وَسُرُورَ قَلْبٍ ... وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَنَعِيمَ بَالِ
وَيَشُقَّ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ مِنْهَا ... فَيَرْغَبُ جَاهِدًا فِي الِابْتِهَالَ
وَأَيْضًا مِنْ عَلَامَتِهِ اهْتِمَامٌ ... بِتَصْحِيحِ الْمَقَالَةِ وَالْفِعَالِ
وَأَعْمَالٌ وَنِيَّاتٌ وَقَصْدٌ ... عَلَى الْإِخْلَاصِ يُحْرَصُ بِالْكَمَالِ
أَشَدُّ تَحَرُّصًا وَأَشَدُّ هَمًّا ... مِنَ الْأَعْمَالِ ثَمَّتَ لَا يُبَالِي

بِتَفْـــرِيطِ الْمُقَـــصِّرِ ثُـــمَّ فِيهَـــا وَإِفْـــرَاطٍ وَتَـــشْدِيدٍ لِغَـــالِ
وَتَـــصْحِيحُ النَّـــصِيحَةِ غَـــيْرُ غِـــشٍّ يُمَـــازِجُ صَـــفْوَهَا يَوْمًـــا بِحَـــالِ
وَيَحْـــرِصُ فِي اتِّبَـــاعِ النَّـــصِ جُهْـــدًا مَـــعَ الْإِحْـــسَانِ فِي كُلِّ الْفِعَـــالِ
وَلَا يُـــصْغِي لِغَـــيْرِ النَّـــصِ طُـــرًّا وَلَا يَعْبَـــأُ بِـــآرَاءِ الرِّجَـــالِ
فَـــسِتُّ مَـــشَاهِدٍ لِلْقَلْـــبِ مِنْهَـــا عَلَامَـــاتٌ عَـــنِ الدَّاءِ الْعُـــضَالِ
وَيَـــشْهَدُ مِنَّـــةَ الـــرَّحْمَنِ يَوْمًـــا بِمَـــا أَسْـــدَى عَلَيْـــهِ مِـــنَ الْفِـــضَالِ
وَيَـــشْهَدُ مِنْـــهُ تَقْـــصِيرًا وَعَجْـــزًا بِحَـــقِّ اللَّهِ فِي كُلِّ الْخِـــلَالِ
فَقَلْـــبٌ لَـــيْسَ يَـــشْهَدُهَا سَـــقِيمٌ وَمَنْكُـــوسٌ لِفِعْـــلِ الْخَـــيْرِ قَـــالِ

۞۞۞

وهذه منظومة أخرى للشيخ حمد بن عتيق يتحدث فيها عن أسباب حياة القلوب، وقد ذكر فيها المشاهد الستة:

حَمِـــدْتُ الَّذِي أَغْـــنَى وَأَقْـــنَى وَعَلَّمَـــا وَصَـــيَّرَ شُـــكْرَ الْعَبْـــدِ لِلْخَـــيْرِ سُـــلَّمَا
وَأُهْـــدِي صَـــلَاةً تَـــسْتَمِرُّ عَلَى الرِضَـــى وَأَصْـــحَابِهِ وَالْآلِ جَمْعًـــا مُـــسَلِّمَا
كَمَـــا دَلَّنَـــا فِي الْوَحْـــيِ وَالـــسُّنَنِ الَّـــتِي أَتَانَـــا بِهَـــا نَحْـــوَ الرَّشَـــادِ وَعَلَّمَـــا
أَزَالَ بِهَـــا الْأَغْـــلَافَ عَـــنْ قَلْـــبِ حَـــائِرٍ وَفَـــتَّحَ آذَانًـــا أُصِـــمَّتْ وَأَحْكَمَـــا
فَيَـــا أَيُّهَـــا البَـــاغِي اسْـــتِنَارَةَ قَلْبِـــهِ تَـــدَّبَرْ كِلَا الـــوَحْيَيْنِ وَانْقَـــدْ وَسَـــلِّمَا
فَعُنْـــوَانُ إِسْـــعَادِ الفَـــتَى فِي حَيَاتِـــهِ مَـــعَ اللَّهِ إِقْبَـــالًا عَلَيْـــهِ مُعَظِّمَـــا
وَفَاقِـــدُ ذَا لَا شَـــكَّ قَـــدْ مَـــاتَ قَلْبُـــهُ أَوْ اعْتَـــلَّ بِـــالْأَمْرَاضِ كَالـــرَّيْنِ وَالعَـــمَى
وَآيَـــةُ سُـــقْمٍ فِي الْجَـــوَارِحِ مَنْعُهَـــا مَنَافِعُهَـــا أَوْ نَقْـــصُ ذَلِـــكَ مِثْلَمَـــا
وَصِـــحَّتُهَا تُـــدْرَى بِإِتْيَـــانِ نَفْعِهَـــا كَنُطْـــقٍ وَبَطْـــشٍ وَالتَّـــصَرُّفِ وَالنَّمَـــا
وَعَـــيْنُ امْـــتِرَاضِ الْقَلْـــبِ فَقْـــدُ الَّذِي لَهُ أُرِيـــدَ مِـــنَ الْإِخْـــلَاصِ وَالْحُـــبِّ فَاعْلَمَـــا
وَمَعْرِفَـــةُ الـــشَّوْقِ إِلَيْـــهِ إِنَابَـــةٌ بِإِيْثَـــارِ ذَا دُونَ الْمُحَبَّـــاتِ فَاحْكَمَـــا

وَمُؤْثِرُ مَحْبُوبٍ سِوَى اللَّهِ قَلْبُهُ   مَرِيضٌ عَلَى جُرُفٍ مِنَ الْمَوْتِ وَالْعَمَى
وَأَعْظَمُ مَحْذُورٍ خَفَى مَوْتُ قَلْبِهِ   عَلَيْهِ تَشَغَّلَ عَنْ دَوَاهُ بِضَدِّ مَا
وَآيَةُ ذَا هَوْنُ الْقَبَائِحِ عِنْدَهُ   وَلَوْلَاهُ أَضْحَى نَادِمًا مُتَأَلِّمَا
فَجَامِعُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ إِتْبَاعُهَا   هَوَاهَا فَخَالِفْهَا تَصِحُّ وَتَسْلَمَا
وَمِنْ شُؤْمِهِ تَرْكُ اغْتِذَاءٍ بِنَافِعٍ   وَتَرْكُ الدَّوَا الشَّافِي وَعَجْزُ كِلَاهُمَا
إِذَا صَحَّ قَلْبُ الْعَبْدِ بَانَ ارْتِحَالُهُ   إِلَى دَارِهِ الْأُخْرَى فَرَاحَ مُسَلِّمَا
وَمِنْ ذَاكَ إِحْسَاسُ الْمُحِبِّ لِقَلْبِهِ   بِضَرْبٍ وَتَحْرِيكٍ إِلَى اللَّهِ دَائِمَا
إِلَى أَنْ يُهَنَّا بِالْإِنَابَةِ مُخْبِتًا   فَيَسْكُنْ فِي ذَا مُطْمَئِنًّا مُنَعَّمَا
وَفِيهَا دَوَامُ الذِّكْرِ فِي كُلِّ حَالَةٍ   يَرَى الْأُنْسَ بِالطَّاعَاتِ لِلَّهِ مَغْنَمَا
وَيَصْحَبُ حُرًّا دَلَّهُ فِي طَرِيقِهِ   وَكَانَ مُعِينًا نَاصِحًا مُتَيَمِّمَا
وَمِنْهَا إِذَا مَا فَاتَهُ الْوِرْدُ مَرَّةً   تَرَاهُ كَئِيبًا نَادِمًا مُتَأَلِّمَا
وَمِنْهَا اشْتِيَاقُ الْقَلْبِ فِي وَقْتِ خِدْمَةٍ   إِلَيْهَا كَمُشْتَدٍّ بِهِ الْجُوعُ وَالظَّمَا
وَمِنْهَا ذَهَابُ الْهَمِّ وَقْتَ صَلَاتِهِ   بِدُنْيَاهُ مُرْتَاحًا بِهَا مُتَنَعِّمَا
وَيَشْتَدُّ عَنْهَا بُعْدَهُ وَخُرُوجَهُ   وَقَدْ زَالَ عَنْهُ الْهَمُّ وَالْغَمُّ فَاسْتَمَا
فَأَكْرِمْ بِهِ قَلْبًا سَلِيمًا مُقَرَّبًا   إِلَى اللَّهِ قَدْ أَضْحَى مُحِبًّا مُتَيَّمَا
وَمِنْهَا اجْتِمَاعُ الْهَمِّ مِنْهُ بِرَبِّهِ   بِمَرْضَاتِهِ يَسْعَى سَرِيعًا مُعَظِّمَا
وَمِنْهَا مُرَاعَاةٌ وَشُحٌّ بِوَقْتِهِ   كَمَا شَحَّ ذُو الْمَالِ الْبَخِيلِ مُصَمِّمَا
وَمِنْهَا اهْتِمَامٌ يُثْمِرُ الْحِرْصَ رَغْبَةً   بِتَصْحِيحِ أَعْمَالٍ يَكُونُ مُتَمِّمَا
بِإِخْلَاصِ قَصْدٍ وَالنَّصِيحَةِ مُحْسِنًا   وَتَقْيِيدِهِ بِالْإِتِّبَاعِ مُلَازِمَا
وَيَشْهَدُ مَعَ ذَا مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَهُ   وَتَقْصِيرُهُ فِي حَقِّ مَوْلَاهُ دَائِمَا
فَسِتٌّ بِهَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ ارْتِدَاؤُهُ   وَيَنْجُو بِهَا مِنْ آفَةِ الْمَوْتِ وَالْعَمَى
فَيَارَبُّ وَفِّقْنَا إِلَى مَا نَقُولُهُ   فَمَا زِلْتَ يَا ذَا الطَّوْلِ بَرًّا وَمُنْعِمَا
فَإِنِّي وَإِنْ بَلَّغْتُ قَوْلَ مُحَقِّقٍ   أُقِرُّ بِتَقْصِيرِي وَجَهْلِي لِعِلْمِ مَا
وَلَمَّا أَتَى مِثْلِي إِلَى الْجَوِّ خَالِيًا   مِنَ الْعِلْمِ أَضْحَى مُعْلِنًا مُتَكَلِّمَا

كَغَــابٍ خَــلَا مِــنْ أُسْـــدِهِ فَتَوَاثَبَـــتْ ثَعَالِــبُ مَــا كَانَــتْ تَطَــا فِي فَنَــا الْحِــمَى
فَيَــا سَــامِعَ النَّجْــوَى وَيَــا عَالِــمَ الْخَفَــا سَـــأَلْتُكَ غُفْرَانًـــا يَكُـــونُ مُعَمَّمَـــا
فَمَـــا جَـــرَّنِي إِلَّا اضْـــطِرَارٌ رَأَيْتُـــهُ تَخَوَّفْـــتُ كَـــوْنِي إِنْ تَوَقَّفْـــتُ كَاتِمَـــا
فَأَبْـــدَيْتُ مِـــنْ جَـــرَّاهُ مُزْجًـــا بِـــضَاعَتِي وَأَمَّلْـــتُ عَفْـــوًا مِـــنْ إِلَـــهِي وَمَرْحَمَـــا
فَمَـــا خَـــابَ عَبْـــدٌ يَـــسْتَجِيرُ بِرَبِّـــهِ أَلَـــحَّ وَأَمْـــسَى طَـــاهِرَ الْقَلْـــبِ مُـــسْلِمَا
وَصَـــــــلُّوا عَلَى خَـــــــيْرِ الْأَنَـــــــامِ كَـــذَا الْآلُ وَالْأَصْـــحَابُ مَـــا دَامَـــتِ الـــسَّمَا